الشريدان

لكاتب الفرنسي جوستاف جيفروا

بقلم الاستاذ محمد لطفي جمعة

تزوج كنزلو الكتبي في شارع فيكتور هيجو بمدينة ليون من آديلا بيد مانجتو ، وقبض بائنة قدرها مائة ألف فرنك ووضع يده على المكتبة . وكان مسيو مانجتو والد العروس من أغنى الوراقين وأشهرهم ، يتجر في المطبوعات القديمة ، ويحتكر كتب التعليم المقررة في الجامعات والليسيه ، وكانت ابنته آديلا بيد وهي وحيدته ، على جانب من الجمال والرشاقة وهي وارثته دون منازع ، فلم يختر لها سوى صبيه كنزلو ، الذي حذق بيع الكتب ، دون أن يفتح واحداً منها ، ولم يخطر بباله يوما أن يستطلع السر في إقبال الشيب والشبان على شراء تلك الأوراق المخزومة المغلفة بمبالغ طائلة ، فكان يحسد سيده ويسخر من جمهور القارئين ، إلى أن شب وأدرك أمور الحياة ، فأخذ يغالي في الأثمان ، ويحسن البضاعة للهواة ومدمني القراء والطلاب حتى وثق سيده بمهارته وأمانته ، فأطعمه وكساه ودعاه إلى داره وقدمه إلى بنته وزوجته ، ثم عقد على الصبي والبنية وخلف التجارة ونزح إلى قرية شاربونيير ، حيث ابتنى قصراً ؛ وبدأ يعيش عيشة راضية بين الأزهار والكتب النادرة ، يقلب صفحاتها ولا يدري ما فيها ، ويعرضها لزائريه مكتسباً فخر اقتنائها .. إلى أن مات وعلى صدره نسخة ثمينة من العهد القديم .

وبدأ كنزلو حياة البخل التي شرعها حموه وسلفه الصالح ، فكان ينازع زوجته رغبة النسل ، ويلجأ إلى شتى الحيل ، خشية أن يرزقا أولاداً يهلكون الحرث والبضاعة ، ولكنه مع كل ذلك رزق منها بولدين : فتى وفتاة . فلما شبا قليلاً بعثت بهما أمهما — التي احتفظت في عقد الزواج بحق التفريق بين البائنة وسميم المال الموروث — إلى مقاطعة لوسرن بسويسرا ، ليثقفا في خفاء عن والدهما الذي كان يقتله الهم لو علم أنهما يتكلفان مائتي فرنك كل شهر وهو ثمن مجلدين من أمهات كتب الطب الحديث . . . ولأجل أن تصون الأم روح زوجها البخيل من التلف أخبرته أنهما يعيشان عالة على أقارب لها فأنالجت صدره ونام مطمئناً على مال غيره ، تلك الليلة . وفي أحد الأيام من فصل الربيع صعد جورج كنزلو الصغير مع أخته لورا إلى أعلى البرج القائم وسط قصر لوسرن ، للمرة الأولى منذ أن قدما من بلدهما إلى تلك البقعة الجميلة الفاتنة ، فذهل لما رآه من بساط سندسي يحيط بالقصر من كل نواحيه ، تليه هضاب ووهاد ، من ناحية ، وغابات من الناحية الأخرى ، فصاح بأخته الصغيرة لورا قائلا :

— أختاه الصغيرة ! أختاه الصغيرة ! تأملي الأرض حولنا

وكانت حاسة الجمال قوية في الطفلين ، وكان الولد على خلاف والده وجده محباً للكتب يقرأها ويحملها إلى فراشه وعلى مائدة طعامه ويتيه بها . فأجابته أخته لورا وكانت تحب الجمال في كل شيء :

— إنها جد كبيرة تلك الأرض يا أخي الصغير

فقال جورج : لقد أخبرنى أستاذى بذلك ولكن مربيتى أديلفايس قالت لى أنظر بنفسك قبل أن تصدق ، الاختبار مقدم على السماع والقراءة. فقالت الفتاة لورا : ما أقسى أن يكون العالم كبيراً جداً هكذا ، فقد يضل المرء سبيله أو ينفصل عن أحبائه ، إننى أحب أمى وأشتاق إليها . ولكن أبى ... ماذا أقول ؟ لِمَ لا يسأل عنا ولا يزورنا ؟

فتجاهل الولد ذكر أبيهما وأجاب: ما أبهج أن يكون العالم متسعاً فسيح الأرجاء ، فيستطيع الانسان أن يغامر ويبحث عما وراء الأفق ويقارن بين مايقرأ فى الكتب وبين عالم الحقيقة ، ووراء هذه الألوان البنفسجية ! أختى لورا ! إنى سأفتح كل هذه الجبال وأصل إلى نهاية هذه الدنيا ...

— وما هذه الحجارة الملقاة بجانب الربوة الخضراء؟ فقهقه أخوها قائلا : هذه منازل يا أختاه، أفلا تعلمين حدود ليمرن ؟

فسألته فى سذاجة :

— وما هذا المجرى الذى ينساب كالأفعوان ؟

— إنه النهر ! أنظر إلى الجسر الحجرى الجميل !

وقبل أن يتم كلامه قالت وهى تشير نحو الأفق :

— أخى ! أخى ! أنظر ، أنظر ما هذا الذى يُضيء في جانب الجبال الزرقاء كصفحة من البلور الأزرق ؟ فأجاب : هى البحيرة التى حدثتنا عنها مربيتنا اديلفايس ، محذرة إيانا من مائها الخطر الجميل ومن الحور الحسان — عرائس الماء — اللاتى يسكنّ فى خفاياها ويخطفن الأطفال . فأجابته فى تصميم وحزم : فلنذهب إليها ! وكأنما ارتاع الصبي من قولها ، ففغر فاه وصاح بها محذراً ... وكان جميلا فى خوفه وتهديده

— لقد أمرتنا « ماما » ألاّ نخرج منفردين ، فكيف بنا نجسر على الذهاب إلى أقصى المعمورة ؟ فصرخت فيه لورا: ها أنت ذا لا تريد أن تذهب معى ومع ذلك فأنا لا أجرؤ على فتح الأرض ، ولا أطمع فى الوصول إلى أقاصى المعمورة مثلك . سأذهب وحدى إلى هناك ، وبدرت من الطفل ضحكة سخرية زادت فى حدة الفتاة فنادت من أعماق قلبها:

إضحك ما شاء لك الضحك ! فسأذهب وحدى أكشف عن المياه الهادئة الوديعة وأرى حورياتها الجميلة ، بينما تجلس أنت فى عقر الدار تلاعب الدمية الصغيرة كطفلة يائسة ؛ وكأنما ألهبت هذه الكلمات نفس الطفل الصغير ، وأذكت فيه روح الحماسة ، فصاح صيحة الواثق : فلنذهب إلى البحيرة ولتحفظنا الحوريات !

* * *

وفى أصيل اليوم التالى بعد أن آوت المربية إلى حجرتها هرع الطفل إلى أخته وناداها قائلا : هيا بنا ! هيا بنا ! فأجابته فزعة :

إلى أين؟ فأجابها وهو يجذبها لتتبعه رغم تمنعها:

« صه صه ! سنذهب إلى البحيرة !.. »

— ولكن كيف نذهب بعيداً دون إذن ؟ انظر إلى حذائى الحريرى الناعم ! هل يجوز أن نذهب ؟ ثم تراها تمانع وهو يصر ، ألم تعنفه بالأمس عند ما أشفق من الذهاب معها ؟ ألم تنعته بالطفلة اليائسة تاهو بدميتها ؟ وإنه يكيل لها الآن الكيل

مرتين ، والصاع صاعين ؟ فلتذهب معه ، رضخت أم لم ترضخ ، وافقت أو لم توافق ! ووافقت الطفلة فى تحفظ قائلة : فلنذهب من طريق غير طريق القرية ، خوفاً من أن يرانا أحد فتسوء العاقبة

وتولى أخوها الشرح والايضاح « سنتبع فى سيرنا طريق « جرتشن » الذى يدور حول القرية من الناحية الأخرى »

وسارا فى طريقهما بينما أخذت الصغيرة تجمع زهر البنفسج الساحر ، وزهر الثالوث من أبيض وأحمر ، تريد صنع باقة جميلة تهديها إلى حوريات البحيرة ، وشاركها أخوها فى العمل فى نشاط واهتمام وقد زال خوفه وحذره

وأجهدت الفتاة نفسها فى المسير إلى أن وقفت إعياء وقالت : أخى إنى عطشانة ! فأجابها وهو يلهث : وأنا كذلك ، غير أن النهر مازال بعيداً ولا أرى فى هذه الجهة مجرى ولا نبعاً

— والآن ما العمل ؟

وما زالا فى حيرتهما حتى رأيا فلاحاً قد أقبل من بُعد ، يحمل سلة فاكهة من العنب الأحمر الشهى ، ويشاء حسن حظهما أن يكون مع الفتاة جنيه ذهباً ذو بريق يخطف البصر ، وأن يرضى الرجل إعطاءها بعض العنب فى مقابل الأصفر الرنان . وسار الطفلان يتمتعان بالنهام الحبيبات الحمراء البديعة ويلقيان البذور ذات اليمين وذات الشمال ، وأخذت أشعة الشمس الذهبية تميل وراء الأفق البعيد ، بينما أخذ النسيم العليل يهب مداعباً شعر الفتاة فى رقةٍ وفى حنان . وسار الطفلان يحوطهما سكون رهيب ، وصرخت الطفلة « لقد فقدت حذائى ، حذائى الحريرى الناعم ، فكيف أواصل السير بقدم حافية ؟ وتلفتت خلفها فظهرت قلاع لوسرن من بعيد كنقطة سوداء بين السحاب والغمام فارتاعت الطفلة ، وصاحت واجفة :

رباه ! سوف تأكلنا الذئاب العاتية ، وسوف تموت أمنا من اللوعة والأسى علينا . فضحك جورج وهو يقدم لها حذاءها الذى التقطه فى غفلة منها .

— لاتخشى بأساً يا أختى الصغيرة ! ! سنعود ثانية قبل هجوم الليل . . فالى الأمام ! هيا !

* * *

وعادا بعد بضع سنين إلى ليون ، وأظهر جورج نجابة فى الدرس والفهم أدهشت العارفين بجهل أبيه وغبائه وبلادته ، وعللوا ذلك بالرجعى فى قانون الوراثة ، فقد تفوق الفتى فى الآداب والفلسفة ونظم الشعر حدثاً ، وأمسى موضع ثقة أساتذته وإعجاب رفقائه ؛ وظهر نبوغ لورا فى الموسيقى . فلما شباعن الطوق وأدى جورج الخدمة العسكرية ، ماتت الأم ، فوضع الوالد البخيل الجاهل يده على التركة ، وأظهر من الشح فى النفقة والتعليم ماقطع على الفتى وأخته طريق العلم والتثقيف . وحتم كنزلو على ولديه أن يلازماه فى المكتبة للبيع والشراء ولقاء العملاء ، فكانا يأنفان أن يراهما زملاؤهما فى الدرس أو يتحسر الأساتذة على نبوغ جورج وجمال لورا اللذين يريد الوالد وأدهما بين جدران المكتبة العتيقة المظلمة فى ظلال بوائك شارع

فيكتور هيجو . ولم يكن كنزلو يشعر بشيء من ذلك ، بل كان أبخل من خلق الله وأخبث من خلق الله، وكان له فى البخل كلام معقول، ومنطق موزون ، ومبادىء ثابتة ، فقد رأى موسيو كايمير عميد كلية الحقوق مرة فى اكتوبر وقد بكر البرد شيئاً ، والعميد شيخ كبير طاعن فى السن ، فلبس كساء له مبطناً بفراء خفيف ، قد نيل منه ، بعد أن صحب لابسه عشرين عاماً .

وكان انقطع عن شراء الكتب فلا يضير الوراق أن يهيج فيه غريزة الحرص على المال فقال له : « عم صباحاً ياسيدى العميد ! . ما أقسى السرف بالعاقل العالم ، وأسمج التبذير بالحكيم ! ماظننت أن أن الاحالة على المعاش والانسحاب من حياة الجامعة يبلغ بك ما أرى ! فدهش العميد السابق وقال : وأى شيء أنكرت منا مذ اليوم يا موسيو كنزلو ؟ وما كان هذا قولك فينا بالأمس . فقال :

— لبسك هذا الكساء قبل أوانه ، فقال العميد : « قد حدث من البرد بمقداره ولو كان هذا البرد الحادث فى يوليو أو أغسطس لكان إبانا لهذا المعطف ، فليست فصول السنة بأوراق التقويم تعرف ، ولا بتواريخ الأيام تقاس ، ولكنها بشعور الأذكياء الذين خلقهم الله وسوّاهم بغير ريش ولا لُبد ، ولا جلود سميكة كالنسور أو السباع » قال كنزلو : « إن كان ذلك كما تقول، فاجعل بدل هذا المعطف الثمين المبطن بالفرو كساء أصم ، لا يخترقه البرد ، بثلاثين فرنكا من مستودع « ألف صنف » فانه يقوم هذا المقام ، وتكون قد خرجت من الخطأ فأما لبس الصوف والفرو اليوم فهو غير جائز فقال العميد : ولِمَ ؟ قال الوراق كنزلو وهو يرجف غيظاً من سرف الشيخ ويود لو يحجر عليه للسفه ؟ ولكنه كظم غيظه لأن غبار آخر الصيف يتداخله ويسكن فى خلله ، فاذا نزل المطر ، وندِيَ الهواء وابتل كل شيء ، ابتل ذلك الغبار ، وإنما الغبار تراب ، إلا أنه لباب التراب ، وهو مالح يتقبض عليه الفرو والصوف فيأكلهما أكل الأرضة ويعمل فيهما عمل السوس فى الخشب والصدأ في الحديد ! فضحك العميد كايمير ، ونظر حوله وقال وهو يسرع إلى الطريق :

— حقاً إنك لم تتجر فى كتب العلم عبثاً ... لله ما أوسمك ! أنت وباستير فرسارهان ! أهذا أهملت تعليم ولدك وتثقيف ابنتك ..؟

فبرز جورج لأبيه بعد أن انصرف العميد وقال:

— ماذا دهاك يا والدى حتى تعترض الناس فى أخص شؤونهم ؟ أتحرم عليه الدفء بثيابه وهى ملكه وقد عتقت وبليت كما شارف صاحبها على الهلاك ؟ وأنت الذي تخشى البرد وتصطك أسنانك فى مقتبل الشتاء ؟ فقال الوالد : أنا أخشى البرد ؟ حبذا البرد من طقس ونعم الشتاء من فصل ، فانه يحفظ رائحة الطعام البائت ولا يحمض فيه النبيذ ، إن ترك مفتوحاً ، ولا يفسد فيه مرق أن يبقى أياماً ، وتطرح الحكومة مدافئ للناس فى الطريق ويشيع بيع القسطل الساخن وهو أرخص غذاء وألذه وأسهله ، ولا يسألك الناس عن تقصيرك فى النفقة إذا لم تذهب إلى ملعب الأوبرا ، محتجاً بداء المفاصل

والزكام والسعال ورغبة الكن، وتدفأ الكنائس بأنابيب البخار فلا نشعر بالصقيع أيام الأحد ونستغنى عن معاكسة الفحامين، ومشاحنة الحمالين، ولا نحتاج أبداً إلى الخشب والورق، وفى الشتاء أفلح فى المران على الجوع، فلا أشعر أثناء الربيع بالسغب فمن صبر عن الطعام شهراً بارداً، استطاع أن يصبر بقية أشهر السنة.

قال هذا وهو يفرك يديه متهللا كمن انتصر فى معركة.

ولما طالت المزوبة على هذا البخيل، خطب لنفسه مدام دولاك الحلوانية التى كانت تغض الطرف عن اختلاس فطائرها، فيأكل منها سبعاً ولا يحاسب إلا على أربع، تريد أول الأمر مصاهرته، فبادر إلى خطبتها آملا أن يلتهم مالها وفطائرها، فلا يفتقر ولا يجوع فى ظل تلك الأرمل الدسمة. فلما غضب الولدان من زيجة أبيهما وتخيلا أن هذه الدردبيس السمجة ستحل محل أمهما أنكرا على أبيهما فعلته، فباع الأثاث بالمزاد وانتقل إلى بيت زوجته الجديدة وفرض لولديه نفقة ضئيلة، فلم يطيقا المعيشة ولم يجرآ على محاسبته أو مقاضاته، واختفيا من وجهه، واتخذ كل منهما سبيله فى الأرض هرباً وقد فرقهما الفقر والقسوة، بعد أن جمعتهما الثروة والحنان، وحمل الفتى بعض كتبه وثيابه وحملت الفتاة حليها الموروثة وحللها وقيثارتها ولم يسأل أحدهما الآخر أنى يولى وجهه .. فضرب الدهر بينهما.

* * *

فى حديقة لوكسمبرج على مقربة من متحف الفنون الحديثة وعلى مرمى حجر من مستشفى « شارتييه » كان شاب جالساً على المقعد الطويل ينتفض من البرد ويتلوى من السغبة وكأنه يعانى سكرات الموت، يكاد شغاف قلبه يتمزق، وكادت أطرافه تذوب، وقد علت الصفرة وجهه والزرقة أظافره، وأحس بأن عظام بدنه تتفتت، وكان البرد شديداً فى ذلك المساء من شهر ديسمبر فسرى إلى ذهنه الذاهل خاطر سريع.

— لماذا لم يدركنى الموت منذ ساعات، بل منذ أيام وأشهر طوال ؟ أفى الانسان تلك الحيوية القاهرة ؟ أم إن الأعمار محدودة كما يقول مارك أوريل فى تأملاته ... ؟ وهل الحظ العاثر يتغير ويتبدل بتبدل حركات النجوم، كما يزعم إبيكتيت ؟ ألا إن الحظ السعيد لن يدركنى ولو أطلق ساقيه للريح ! إن نهايتى قريبة ... وعلى غرة منه وهو سابح فى أحلام شقائه، لا يذكر الماضى، ولا يملك أن يعرض حوادثه، ولا يرى شعاعاً من نور المستقبل، وينتظر انسدال الليل ليتمدد على خشبة المقعد لعلها تكون الرقدة الأخيرة، سمع وقع أقدام مقبلة نحوه فبشر نفسه بمقدم الشرطى الذى سيقوده حتما إلى قوميسير البوليس، فغرفة السجن الدافئة، فان السجن أحب إليه من الحرية، لأن الحكومة أشفق عليه من القدر، ودنا منه سواد وصوت ولكنه لم يرفع رأسه ليتبينهما وسمع صاحب الصوت يقول :

— هل تتألم من الجوع والبرد ؟

فقال : البرد والجوع من شأن من يشكوهما

وحده ، فاذهب عنى بسلام أو اقبض على إن كنت شرطيًا ، فانني متشرد لا مال لى ولا صنعة ولا مأوى ، أو اتركنى أذهب إلى جهنم إن كنت قسيساً

فأجاب صاحب الصوت ، وهو يلمسه بلطف بيد كريمة :

— لست شرطيًا ، ولست قسيساً ، ولكننى أستطيع أن أنقذك من الجوع والبرد والالم والوحدة فنحن أفراد جمعية البر بالطرداء ، نجوس خلال الحدائق العامة ، ونمرق تحت الجسور ، فنفرح بهم ونعينهم ما استطعنا . وليس البر من صلب مالى ، ولكنه بعض الدين الذى فى أعناق المجتمع يسدده لكم أقساطاً ضئيلة على أيدينا ، فهل تقبل ما أعرضه عليك وتعينني على أداء واجبي نحوك دون أن أسألك عن شخصك أو أصل بلائك ؟

فأحس الشاب بأنه مقود إلى صاحب الصوت الهادئ واليد اللطيفة الكريمة ، ولكن البرد والجوع قد أتلفا أعصابه ، حتى غشيت بصره سحابة ، واختلج صوته فى حنجرته ، وخانته رجلاه وهو يحاول النهوض ليتبع المحسن مستسلماً ، فأى بلاء يخشاه بعد الذى هو فيه ؟ وما خوف الغريق من البلل ، والمحترق من مستصغر الشرر ؟ فلا حذر اليوم ولا وجل ، ولا رضى ولا أمن ، فقد استوى لديه الماء والخشب ، والبغض والحب ، وتكافأت فى عينه محاسن الدنيا ومساوئها !

فلما نهض ارتجف وكاد يقع على الأرض ، فأسندته يد كريمة . فقال الشاب كمن يفيق من غيبوبة :

— هل البرد شديد ؟

أجاب صاحب الصوت : نعم وإنه لشتاء قاس

قال : « يخيل إلى أننى سمعت رجلا يقول : « حبذا البرد من طقس ، ونعم الشتاء من فصل ، فانه يحفظ رائحة الطعام ، ولا يحمض فيه النبيذ إن ترك مفتوحاً ولا يفسد فيه مرق إن بقى أياماً ، وتطرح الحكومة... أختاه هذا هو حذاؤك الحريرى الناعم ... » . ولم يكمل كلامه بل سقط على الأرض ، فظنه المحسن ميتاً فحمله على ظهره إلى أقرب سيارة ، وهو يحس نبضه ، ويفرك صدره ... وفتح الشاب عينه بعد ساعتين وهو يحس بالدفء والحياة ورائحة الطعام تهب على وجهه ، فطلب إليه أحد الخدم أن يدخل الحمام قبل الطعام ، وأن يترك ثيابه ليلبس سواها جديدة ؛ ولما أكل ونام وتيقظ لم يسأله أحد عن شخصه وتركوه أياماً حتى استعاد قوته ونشاطه وعرضوا عليه أن يتعلم صنعة من الصناعات الرفيعة كالتصوير أو الموسيقى أو إحدى الحرف النافعة كصنع الأثاث أو النسيج الراقى ، فاختار التصوير واجتهد فى إتقانه ، ولكنه كان يقضى معظم وقته فى المكتبة ويحمل كتباً لا يفارقها ، وعبثاً حاولوا أن يقصوه عن القراءة حتى يحسن فنه فيربح منه مايعينه على هوايته . وكانت أيام الشتاء قد ولت وعاد الربيع بأزهاره وأطياره ، وعاد الشاب إلى كتبه وأشعاره ، إلى أن انتهز فرصة ، فاستأذن فى الخروج ، ولم يعد إلى الدار ، بل عاد إلى حياة التشرد حياة مفلوكة طليقة من كل قيد واتخذ له مجلساً ومقراً فى بارك مونسو على مقربة من تمثال جي دى موبسان ، ذلك

الكاتب الذى أحبه فى صغره فكان يأنس إلى تمثال أقيم هناك لتخليد ذكرى ذلك الكاتب الذى شغف بقراءة كتبه فى عهد محاه الشقاء من ذاكرته ، ولم يقو على محو روح هذا الكاتب من لوح فؤاده المذيب ، فقد صنع له المثال صورة امرأة من نساء باريس فى آخر الزمن ، ونهاية هذا العصر ، مضطجعة على « شيزلونج » ومتكئة برأسها الجميل الذى يشبه رؤوس عصافير الجنة ، على معصمها الفاتن ، وفى يدها الأخرى كتاب كانت تقرأه ولعله « قصة حياة[1] » وإلى جوارها عمود من المرمر نصبوا فى أعلاه تمثال جى دى موبسان فى الأربعين من عمره ، وهى السن التى مات فيها نزيل مصحة دوكتور بلانش ، وقد كان هذا التمثال فى أول أيام الربيع مدعاة لتفكير الشاب وتأمله ، فان المرأة الراقدة فى يقظة النسمان ، وإن كانت من المرمر الملون ، إلا أنها ناطقة بعشرات المعانى ، التى لا يدركها إلا من تذوق حياة باريس ووقف على الصورة العجيبة التى أودعها المؤلف كتبه ، سواء أكانت القصص الطوال أم الروايات القصار ، أم النوادر الصغيرة « الغاليّة[2] » امرأة فى مقتبل العمر وروعة الجمال عليها كل مظاهر الفتنة والحيرة أمام لغز الحب والحياة ، وكأنها تطلب حل هذا اللغز ، من ذلك الكتاب الذى تقلب فيه أجفانها أثناء تقليب صفحاته ، تقرأ بعينيها وعقلها وقلبها ، هناك بعيداً جداً تتبع رجلاً فى خطواته وتسأل نفسها عن وفائه وخيانته ، أهى مهجورة فى مضجعها ، أم منتظرة حبيبها ، أم يائسة من لقائه ، أم تائبة بعد أن اكتوت بنار الحب اللاذعة ؟

فكان الشاب يجلس حيال هذا التمثال فى وقت الأصيل وبين يديه كتاب ، وفى لحظة يستعرض حياته ويحار فى مصيره ، ولكنه كان يقضى النهار متسكعا لا عمل له . كل ما يملأ ذهنه تلك الطيور المغردة المتنقلة بخفة أجنحتها بين الأغصان ، ثم مناظر الطبيعة فى موسم الربيع الساحر ، فى تلك المدينة الباهرة الجمال . وكان أحيانا يقصد إلى بعض المتاحف والمكاتب فيسلخ فيها بعض ساعات النهار ثم جاء الصيف وهو سريعاً ... ثم جاء الخريف وعادت السماء إلى الوجوم والتلبد بالغيوم وبدأت أمطار باريس تهطل مدرارا ، والبرد يتضاعف ويصبغ أفكاره بالسواد . أين يجد حياة تقيه متاعب الشتاء ... خطر له أن يبيع الكتب القديمة على ضفة النهر ... وأثناء تفكيره كتب قصة عن حياة طفلين ، ونظم قصيدة فى حنان الأم وبعث بهما إلى جريدة «الماتان» لأنه تفاءل باسمها ، أليس كل الخير والبركة والبشاشة فى البكور والبكور فى الصباح ؟

وجعل عنوانه مكتب البريد بشارع بونتييه ، لقربه من بستان مونصو ، حيث تمثال مؤلفه المحبوب . ولكن الجريدة لم تستجب له ، ولم يشتر أعدادها بانتظام ليرى قصته وقصيدته . وضاقت الدنيا فى عينيه من جديد ، وندم على أنه ترك بيت المحسنين الذين أنقذوه أول مرة وخجل أن يطرق بابهم ،

(١) قصة Une vie من أشهر كتبه

(٢) Histoire gauloise قصة فيها مجانة وخلاعة نسبة إلى بلاد « الغال »

ولعله نبي مغرم ، فهل يترك نفسه للموت البطيء وكان فى العام الفائر أقرب إليه من حبل الوريد لولا أن أدركه الله . فلن يتحمل الآلام القديمة من جديد ، فلا بد له من الخلاص من الحياة ، فاستجدى ثمن سم سائل فى زجاجة صغيرة ، استجدى امرأة شابة ، ظنها ذاهبة إلي موعد غرام ، والمرأة أكرم ما تكون عند ما تقصد إلى لقاء الحبيب ، فعاطفتها أرق وقلبها ألين وأرحم ، وهو شاب في مقتبل العمر ، لا يزال به أثر للجمال ظاهر ، وبقية من نعمة مفارقة فأخذ الصدقة ، ليدفعها ثمناً للنزع ثم القبر المجهول ، إن رخامة « الورج[1] » أحن على ضلوعه من البرد والجوع ومن هذه المدينة ذات الجمال والأضواء بل أحن عليه من أبيه . ولما ظفر بالسم عادمتهلا ، لأنه سيقضي على آلامه إلى الأبد ، وفى لمحة ذهن لامعة تذكر أبياتاً لڤيرجيل :

إذا أشرفت النفس الحزينة على الموت
تجردت من همومها واستبشرت
سوف يكسر الموت الموانى أغلالها
ولا يهمها أن تخرج مختارة أو مرغمة
فانها تعبر القنطرة فى طرفة عين
عبور القنطرة بالنار أو بالماء

بالخنجر أو بالسم الزعاف . إن العين لن ترى ، والأذن لن تسمع ، والعقل لن يذكر ، عبور القنطرة .

فكررها وترنم بها ، وكأنه يقرؤها فى كتاب قديم فى ركن مكتبة عتيقة فى شارع مظلم ، فى مدينة قاتمة ، فمن هو وما هى المدينة ؟

ذهب إلى الحديقة — بارك مونصو — ولم يقصد إلى المقعد الذى تعود أن يجلس عليه ، بل أخذ سمته إلى ناحية قصوى وأخرج القنينة من جيبه ، كانت كقارورة العطر التى يفوح منها ريح الموت المريح . ونظر حوله فلم يجد حياً عاقلاً سواه ، غير أنه لمح طائراً صغيراً يبنى عشه فى أغصان الشجر فضحك ضحكة عالية وهو آمن ألا يسمعه أحد وقال : حتى صغار الطير مسخرة للحياة ، تلتمس رزقها وجرعة الماء وتبنى عشها ذرة فذرة وقلامة فقلامة ، وتغني وتمشق وتخضع للحب كما تلتقط الحب ، وتستهدف لحصاة الطفل ، ونبل الصائد ، ومنقار الجارح ومخالبه ، وأظفار القط الجائع ، لتبيض وترقد على صغارها حتى تفرخ وترتاش ... أما الانسان العاقل الطموح إلى الحياة ، المدرك لدقائق الدنيا ، المتطلع لأسرارها ، يبتلى ويجوع ويبرد ويظمأ وييأس وهو آمن . ربى لِمَ لم يصنعوا قانوناً يضمن لنا الحياة كما ضمنت أنت الحياة لهذا الطائر ؟ لقد تركته طليقاً وتركونا فى أقفاص ضيقة أتراك تحاسبنى وتسألنى عن تلك الثمالة من عمرى .. ولكن إذا كانت هناك بقية فلِمَ مكنتَ لى شراء هذا الدواء ، وأعددتنى للموت هادئاً فى ذلك المكان المهجور ، وسط المدينة الصاخبة ؟ إن قليلا من مالهم وطعامهم وثيابهم ونارهم ، يرد عنى غائلة الردى الذى حببتَـه إلىّ ! ألهذا ولدتنى أمى الحنون وأرضعتني وخافت علىّ عاديةَ الهلاك طفلا وفتى ويافعاً ؟ ترى كم من فتى مثلى فى موقفى هذا بين يديك فى تلك اللحظة المدهشة . وما قصصهم ؟ وما هى طريق المسيح التى وُصفت بالعذاب وهو يحمل صليبه ؟ هل كانت خشبته أثقل على كاهله من خشبتى التى لا يراها أحد ، ولكنى أشعر بعبئها ؟

(١) معرض جثث المجهولين فى باريس

هأنذا أقصد إلى الجولجوتا طائعاً ، وليس ورائى حواريون يبكون ولا جنود يخزوننى بأسنة رماحهم ولانساء من الأهل والمابدات يندبنى . هأنذا أصنع خلاصى بيدى ، ولكن أصنعه بخطيئة حلوة ، لأنها تحد من شقوتى . غداً يقرأون نبأ مصرعى، سأموت مجهولا ويقولون شريد قضى ! مجهول لا يمت لأحد بصلة ، ولن تذرف عين على جسدى العارى دمعة واحدة . ألا وداعاً أيها الحزن الدائم وأيتها المخاوف من برد الساعة الرابعة ، وأيها الجوع القارص وأيتها الذكريات الغامضة . سيفوز حيٌّ ضعيف عاجز ، بالانتصار على الطبيعة وعلى قوة القدر ، سأعو بجرعة واحدة أعواماً طويلة من الشقاء المرتقب . وسأربح فى لحظة غفران ذنوب لم ترتكب وسأخلص نفساً ، وكأنى أخلص النفوس جميعاً .. إلهى ! إلهى ! لماذا تركتنى ؟

ثم رفع يده بالزجاجة ، فتجرع نصف ما فيها وإذا بصرخة مدوية ، أفقدته بقية رشده ، فلم يتم شرب منيته وأرخى يده . ترى من صاحب هذا الصوت المشئوم الذى أفسد عليه جمال تلك اللحظة الرائعة ؟ من ذا الذى تدخل متطفلا بين الموت وبينه ؟ من يكون ذلك الثقيل الذى لم يدرك جمال البرهة الرهيبة المقدسة ؟ من قطع تلك المحادثة بينه وبين ربه الذى يصغى إليه فى حنان ورحمة ويعد الملائكة لاستقباله ؟ أو .. فى غضب ونقمة ويأمر الشياطين ليجروه إلى سقر . هل كان دانتى اليجييرى كاذباً إذ وصف عذاب المتحرين فى تلك المهزلة ؟ ثم أغمض عينيه وراح فى غيبوبة مظلمة . ومضت ساعات طويلة قبل أن يعود إليه رشده ، وفتح عينيه فاذا به فى غرفة مشرقة وإلى جانبه امرأة فى ريعان الشباب تحنو عليه وترعاه ... وقد حملته إلى سرير نظيف وفراش ناعم وأشعلت ناراً وجلبت له طعاماً ونبيذاً وأزهاراً يانعة . فشعر بالحياة تعاوده . وعرف أنها عاملة فى أحد مخازن الكتب ، وأنها كانت فى الحديقة بانتظار حبيبها الذى أخلف موعده فرأت إنقاذه خيراً من الصبر على صديق متباطىء ، فهل أخطأت ؟ نعم أخطأتِ ولكننى أحببتك منذ رأيتك ، وغفرت لك ذنب إقصائى عن الموت الذى كنت أنشده .

وقبلها وضمها إلى صدره . وشعر بأن قوة تجذبه إليها ، ولكنها مانعت ، لأنها لا تزال مرتبطة بالآخر الذى كانت تنتظره، فلتقاطعه أولا، بصراحة لا تعرف المواربة . ستذهب إلى الحديقة فتلقاه وتودعه ، وهى لن تلين له بعد اليوم ، وإن كان جديراً بشكرها لأنه يسر لها إنقاذ حياة الرجل الذى أحبته ، فوافقها وصحبها إلى سور البستان ، وشهد خلال أعواد الحديد والأغصان موقفها . فانه لم يزد على دقائق ممدودة

قالت له فى رفق : إن ما كان بيننا قد انتهى . والماضى لا يعود ، وداعاً .

وعادت إليه فرحة مسرورة كمن وضعت حملا عن كتفها . فقال لها : أبهذه السرعة تقطعين حبال الود ، وتدفنين غير باكيات ذكريات الهوى ؟ فضحكت وقالت : عوضنى الله بدل الدرهم ديناراً ، فانك أنبل وأشجع وقد سمعت مناجاتك كلها قبل

أن ترفع يدك بالسم إلى فمك ، وكنت موزعة بين التلذذ والروعة ، وبين الخوف على حياتك والخوف منك . وحسبتك فى أول الأمر شاعراً مجنوناً ، إلى أن ذكرت سيدنا المسيح ، واستغفرت لله من المعصية ، فأيقنت أنك يائس ولكن خشيت أن أزعجك ، فلما رأيت السم يسيل بين شفتيك خاطرت بعمرى في سبيل عمرك . ستعيش وتنجح وتفوز فما أنت للشقاء خُلقت .. وعادا إلى غرفتها . فألفاها عامرة بالكتب التى تشتريها وتستعيرها وبأوراق الموسيقى التى تجيد عزفها فأخذ يقرأ ويأكل وينام وينتظرها وهى تدأب وتعمل وتوفر له مطالبه ، ولا تتألم ولا تضجر كأنها أم فرشت فأنامت ولم تسأله عن اسمه ولا صنعته ، وهو كذلك لم يسألها ، فلو أنهما افترقا وافتقد كل صاحبه لما اهتدى إليه أبد الدهر . وإذ عادت ذات مساء وكانت تحمل رغيفاً ملتفاً فى جريدة قديمة ، لمح اسمه فكتم عنها الأمر ، ثم تناول الوريقة الذابلة وقرأها ... هذه قصته منشورة ، فابتسم . وفى الصباح ذهب إلى مكتب البريد فإذا مكاتيب تنتظره ، وكلها تدعوه إلى لقاء رئيس التحرير لأمر مهم ، فلم يستطع أن يخفى عنها رغبته في الذهاب إلى إدارة الجريدة فمنيت بثيابه ومظهره فراح متقمشاً معطراً ، فلما تقدم إلى رئيس التحرير ، رحب به وقال له : يهمنا أن تساهم فى تحرير جريدتنا التى سرها نشر قصتك وقصيدتك ، ولا ريب أنك كنت تتجول فى الأقطار تجمع مادة لكتبك وهذا الذى دعا إلى إبطائك فى تلبية دعوتنا . إنك من فحول كتابنا المطمورين ، ولعلك غنى ، تعمل لأجل الفن ، ولكنا لا نقبل مساهمة بغير أجر . سندفع لك مائة فرنك عن القصة الواحدة مؤقتاً أما القصائد فلها حساب آخر وإن شئت فاسحب من الصيرف قسطاً على المحاسبة ، وليكن ألف فرنك لنضمن تعاونك فذهل من كرامة الرجل ، وأراد أن يشعره بجاهه فقال له :

— إنى أقبل لأسرك ، فلست بحاجة إلى المال

فقال الرئيس : إن اسم كنزلو ليس غريباً علىّ . أتعرف صاحب مكتبة شهيرة بهذا الاسم فى مدينة ليون ؟

فقال جورج كنزلو — إذ لم يكن سواه — أنا ابن صاحب المكتبة بعينها . .

فقال الصحفى : إنى آسف لما أصاب والدك ، ولا أحب أن أحرك آلامك وقد نشرنا نعيه منذ عام بشىء من التفصيل وأغفلنا ذيول الحادثة خشية ذيوعها .

— فاتنى هذا العدد . . . وإن كنت

— فبعث الرئيس فى طلبه وقدمه متلطفاً ، فطواه جورج وشكر الرئيس وودعه ومر بالخزانة ليقبض القسط الموعود ، ثم قصد إلى مقهى ونشر الصحيفة . وعلم وهو بين الفرح والألم أن والده مات فجأة عقيب مشاجرة بينه وبين زوجته ، فاتهمت بدس السم له فى فطائر دسمة ، وأثبت الدكتور لوكار إمام الخبراء فى الطب الشرعى أن فى أمعائه آثارة من زرنيخ ، فهاج الرأى العام ونعتوها بمدام لا فارج جديدة ، فاعتقلت الحلوانية — مدام كنزلو حالا وهى مدام دولاك سابقاً ، فختموا تركته وجردوا ثروته . وإذا بها تربى على ربع مليون ، وأنكرت التهمة أن له ورثة ، ولكن الجيران شهدوا بحياة وارثين من صلبه ولكنهما غابا غيبة منقطعة ولعلهما يطلبان العلم فى بلاد نائية ولم يبلغهما

نى أبيهما . فهذه الثروة ثروتهما . ولما كان قاتل المورث لايرث فى حكم القانون ، فقد أصبحا بغير مزاحم ، لأن الوصية التى ضبطت فى الأوراق ، أمست لغواً ولم تفد المرأة إلا دليل إثبات عليها ولا تقدر على نفيه. فابتلت عيناه بالدموع وهو يقرأ الخبر المطول وتذكر طفولته وأخته وأمه . ولكن أين هما؟

هل هو فى حلم أم فى حقيقة . وهل كان في عداد الأغنياء عندما كاد يموت من الجوع والبرد . ما أوسع يارب رحمتك ! وما أعجب تدبيرك وأحكمه.

وهذه الفتاة الغريبة التى أنقذتنى ترى مايعتريها من جنون الفرح إذا علمت أنها لم تنقذ متشرداً ولا طريداً ولا وضيعاً ، بل أنقذت غنياً شريفاً يحب الشعر والأدب ، كان وأخته ضحية البخل وجنون الذهب ، وكانا ذوى مواهب كامنة قضى عليها لؤم الحياة. نهض جورج كنزلو فاشترى أزهاراً وثياباً وأطعمة دسمة وحلياً ولم يقرب الحلوى ، واتخذ مقعده فى سيارة فخمة . وقال : سأتزوج منها اليوم ، وسنبحث عن شقيقتى معاً . لشد مايكون فرحنا جميعاً عندما نعود معاً إلى ليون ، ونفتح أبواب المكتبة . ثم لا نعترض على ثياب الناس ولا نمتدح فصل الشتاء الملعون ، سوف نقضى الصيف فى لوسرن لنرى القصر والحصن والبحيرة والجبل . وسوف نبتنى لأمنا قبراً فخماً ، ونشهد محاكمة المرأة المجرمة . ونثبت وراثتنا ، بأسهل مايكون . أيمكن أن يتجاهلنا أحد ؟

ولما بلغ البيت دفع أجر السيارة بسخاء ، وانتهب درجات السلم حتى وصل إلى باب الغرفة فوجده مغلقاً ، وقد علقت بأعلاه رسالة مغلفة ففضها وهو يلهث

— أخى جورج . لا تحاول البحث عني عبثاً فانى عرفتك بصوتك وملامحك منذ الوهلة الأولى ولكني لم أرد أن أفجعك بما وصلنا إليه من الشقاء . أما أنك لم تعرفنى، فلأن الألم قد أثر فى ذاكرتك . لقد ذقتُ أكثر مما ذقتَ ، ولذا لم أسألك عن نفسك شيئاً . لقد شهدت عاري ، وعلمت من حياتى ما لا يسمح لى بلقائك إذا عرفتنى . أنا شقيقتك لورا البائسة . لقد مات والدنا بيد تلك المجوز التى اختارها بعد أمنا ، وترك ثروة طائلة ، ولكننى لا أجرؤ على الذهاب لإثبات وراثتى دونك وأفضل الموت الآن على مواجهتك ، بعد أن علمت أننى سقطت فى أحضان رجل لم تربطنى به رابطة الزواج أنا التى أنبتّنى أبى نباتاً حسناً ، ولم يجن علىّ وعليك إلا جنون أبينا الذى فى الأرض . ستعود إلى غرفتى فلا تجدنى وسوف أختفى فى باريس إلى أن أغادرها إلى بقعة مجهولة . إنى أحمل على كاهلى الصليب الذى تركته فى حديقة مونصو . لكل منا نصيبه. ولكننى لن أقتل نفسى ، لأنى لا أزال مؤمنة . لقد أحببتنى وحدثتك نفسك بالرقاد فى فراشى خليلا وأنت لا تعلم أنك أخى . لعلني أخطأت إذ لم أصارحك فى الساعة الأولى . ولكنى خفت عليك أثر الصدمة ، وأنت ضعيف محتاج إلى العناية والهدوء . إننى فتية صحيحة البدن وسأجد رزقى كذلك العصفور الذى وصفته وأنت على شفا الهاوية . لقد كان نبش عشى نتيجة إنقاذك ، فهل أندم أن كنت سبب نجاتك ؟ سوف ألقط حَبى ، وأحاول أن أبنى عشى دون أن يصيدنى صائد ماكر . سأغرد باكية وأذرف دموعاً ساخنة على فراقنا المرة بعد المرة . إصفح عنى واغفر لى ، فانى لم أقصد إلى تدنيس شرفك عامدة ،

أتذكر سياحتنا فى الجبل والبحيرة ؟ . كنت وأنا أتعهدك أذكرها دائماً ، وأبكى أثناء نومك ، وطالما هممت أن أوقظك قائلة : جورج ! أخى الصغير ... تلك لورا التى تكلمك ... ولكن شجاعتى كانت تخوننى ...

وفى تلك اللحظة فتح الباب وخرجت سيدة مكتهلة ، وهى مالكة الغرفة المهجور وصاحبة الدار كلها وقالت :

— سيدى ! إن الآنسة قد سافرت ولم تترك عنوانها ، ولم تذكر شيئاً يهتدى به إليها

— حسن ، لقد قرأت خطابها ، تفضلى بقبول هديتها إليك فقد أوصتنى أن أشكرك على ما رأت من لطفك أثناء إقامتها لديك ...

فابتسمت المرأة وقالت : تفضل واسترح قليلا من عناء المشترى والمساومة . فدخل يمسح عرقه ، وأخذت المرأة الأزهار والهدايا وصفتها فى أماكن لائقة دون أن تمس غلافها ثم سألته : هل كنتما عازمين على الزواج ؟

أجاب : كلا ، أى زواج ؟ أفى بلاد الزنوج نحن أم فى الهند الصينية ، أم أن الحضارة تتقهقر ؟

— ولم ياولدى ألا يتزوج عن عشق غير الزنوج وهند الصين ؟

— إنها شقيقتى ياسيدتى من أبى وأمى

— شقيقتك ؟ آه لقد فهمت فمعذرة

ولم تركتك على غير صورة ، كأنها تفر من ضيغم ، وأراك مهذباً شهماً لا تنكر قرابتها ، ولا تأخذها بلاءمة

— وكيف أنكر قرابتها وقد أنقذت حياتى من موت مؤكد ؟ ولكنى فى الحق لم أعرفها للوهلة الأولى وإن هى عرفتنى

— لعلها خشيت عتاباً أو ملاماً ..

— وأى عتاب يكون بين شقيقين فرق بينهما الدهر ثم اجتمعا على إحسان أحدهما إلى الآخر إحساناً لا ينسى .

— إذاً ما يسمى فى لغة العصر الحديث « سوء تفاهم » وإنه للفظ حلال للعقد .

— وأين لى أن أجدها لأركع تحت قدميها ، شاكراً مستغفراً ؟ ألا تعلمين ياسيدتى ، بالله عليك ، مظنة من مظان وجودها ؟ أحب أن أودعها ولو شاءت مفارقتى ، مستحيل أن أفقدها هكذا .

فأغرورقت عينا المجوز بالدموع وقالت :

— ربما ! ثم خرجت من الغرفة فأطرق جورج ملياً ثم سمع وقع أقدام فرفع رأسه ليرى من المقبل عليه .

فاذا بلورا نفسها خاشعة مطأطأة الرأس ، فأقبل عليها يقبلها ويحتضنها ويبشرها بالسعادة بشرط ألا يذكر أحدهما كلمة عن الماضى القريب أو البعيد ، فما جمعهما الله لتفرق بينهما الذكرى . فابتهجت ووافقت ودخلت المجوز تبكى من الفرح وقد جمعت شملهما بعد أن ظنا أن لا تلاق بعد الساعة ، وقالت وهى تنشج بدموعها : أنا التى استبقيتها إلى أن تعود ، وقلت لها : انتظرى حتى أمتحنه ، فان جفا أوقسا ، فمع السلامة ، وإن حنّ ولان فهو بك أولى وأنتما بمالكما أحق ، ووعدتنى أن تبقى الغرفة لها مادامت بباريس

— وأنت أيضاً لنا ، فلن نفارقك بعد اليوم فقد كان بيتك دار النعمة والبركة ، والرجاء بعد الفنوط ، ولا معنى للحياة مع اليأس

محمد لطفى جمعه